الوجه الرابع : أنَّ اللّه كان ولا شيء معه ثم كتب في الذكر كل شيء كما جاء في الحديث الصحيح ، فإن كان لا شيء معه فيما بعد فما الفرق بين حال الكتابة وقبلها ، وهو عين الكتابة واللوح عند الفراعنة الملاحدة ؟

* * *

فصل

في قولهم بإيمان فرعون وأنه لا يدخل النار وتحريفهم الآيات فيه

وزعمت طائفة من هؤلاء الاتحادية الذين ألحدوا في أسماء اللّه وآياته أنَّ فرعون كان مؤمناً وأنه لا يدخل النار ، وزعموا أنه ليس في القرآن ما يدل على عذابه بل فيه ما ينفيه كقوله : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ (١) قالوا : فإنما أدخل آله دونه ، وقوله : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ (٢) قالوا : إنما أوردهم ولم يدخلها ، قالوا : ولأنه قد آمنَ أنه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، ووضع جبريل الطين في فمه لا يرد إيمان قلبه .

وهذا القول كفر معلوم فساده بالاضطرار من دين الإسلام لم يسبق ابن عربي إليه فيما أعلم أحد من أهل القبلة ولا من اليهود ولا من النصارى ، بل جميع أهل الملل مطبقون على كفر فرعون . فهذا عند الخاصة والعامة أبين من أن يُستَدل عليه بدليل ، فإنه لم يكفر أحد باللّه ويدعى لنفسه الربوبية والإلٰهية مثل فرعون ، ولهذا ثنّى اللّه قصته في القرآن في مواضع ، فإنَّ القصص هي أمثال مضروبة للدلالة على الإيمان ، وليس في الكفار أعظم من كفره ، والقرآن قد دلّ على كفره وعذابه في الآخرة في مواضع :

أحدها : قوله تعالى في القصص : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ من رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُم مِّنَ المَقْبُوحِينَ ﴾ (٣) فأخبر سبحانه

(١) غافر : ٤٦ (٢) هود : ٩٨ (٣) القصص : ٣٢ - ٤٢

أنه أرسله إلى فرعون وقومه ، وأخبر أنهم كانوا قوماً فاسقين ، وأخبر أنهم : ﴿ قَالُواْ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ (١) ، وأخبر أنَّ فرعون قال : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ (٢) ، وأنه أمر باتخاذ الصرح ليطلع إلى إلٰه موسى وأنه يظنه كاذباً . وأخبر أنه استكبر فرعون وجنوده وظنوا أنهم لا يرجعون إلى اللّه . وأنه أخذ فرعون وجنوده فنبذهم فى اليمّ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وأنه جعلهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصرون ، وأنه أتبعهم فى الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين .

فهذا نص فى أنَّ فرعون من الفاسقين المكذّبين لموسى ، الظالمين الداعين إلى النار ، الملعونين فى الدنيا بعد غرقهم ، المقبوحين فى الدار الآخرة . وهذا نص فى أنَّ فرعون بعد غرقه ملعون ، وهو فى الآخرة مقبوح غير منصور . وهذا إخبار عن غاية العذاب ، وهو موافق للموضع الثانى فى سورة المؤمن ، وهو قوله : ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٣) ، وهذا إخبار عن فرعون وقومه أنه حاق بهم سوء العذاب فى البرزخ ، وأنهم فى القيامة يدخلون أشد العذاب ، وهذه الآية إحدى ما استدل به العلماء على عذاب البرزخ .

● النصوص فى أنَّ الرجل يدخل فى آله وأهل بيته وهو منهم :

وإنما دخلت الشُبهة على هؤلاء الجهال لما سمعوا : « آل فرعون » فظنوا أنَّ فرعون يخرج منهم . وهذا تحريف للكلم عن مواضعه ، بل فرعون داخل فى آل فرعون بلا نزاع بين أهل العلم والقرآن واللغة .. يتبين ذلك بوجوه :

أحدها : أنَّ لفظ : « آل فلان » يدخل فيها ذلك الشخص مثل قوله فى الملائكة الذين ضافوا إبراهيم : ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ (٤) ، ثم قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ

---

(١) القصص : ٣٦ (٢) القصص : ٣٨

(٣) غافر : ٤٥ - ٤٦ (٤) الحجر : ٥٨ - ٦٠

الْمُرْسَلُونَ * قَالَ ﴾ - يعنى لوطاً - ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ [1] ، وكذلك قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوط ، نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ [2] ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [3] ، ومعلوم أنَّ لوطاً داخل فى « آل لوط » فى هذه المواضع ، وكذلك فرعون داخل فى « آل فرعون » المكذَّبين المأخوذين ، ومنه قول النبى ﷺ : « قولوا اللّهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليتَ على آل ابراهيم » ، وكذلك قوله : « كما باركت على آل إبراهيم » فإبراهيم داخل فى ذلك ، وكذلك قوله للحسن : « إنَّ الصدقة لا تحل لآل محمد » .

وفى الصحيح عن عبد اللّه بن أبى أوفى قال : كان القوم إذا أتوا رسول اللّه ﷺ بصدقة يُصلِّى عليهم ، فأتى أبى بصدقة فقال : « اللّهم صَلِّ على آل أبى أوفى » وأبو أوفى هو صاحب الصدقة .

ونظير هذا الاسم « أهل البيت » اسماً ، فالرجل يدخل فى أهل بيته كقول الملائكة : ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [4] ، وقول النبى ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [5] ، وذلك لأن آل الرجل مَن يتولى أباه ونفسه ممن يؤول إليه ، وأهل بيته هم مَن يأهله وهو مَن يأهل أهل بيته .

فقد تبيَّن أنَّ الآية التى ظنوا أنها حُجَّة لهم هى حُجَّة عليهم فى تعذيب فرعون مع سائر آل فرعون فى البرزخ وفى القيامة ، ويبيِّن ذلك أنَّ الخطاب فى القصة كلها إخبار عن فرعون وقومه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُواْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ ...

---

(١) الحجر : ٦١ - ٦٢ (٢) القمر : ٣٤ (٣) القمر : ٤١ - ٤٢

(٤) هود : ٧٣ (٥) الأحزاب : ٣٣

إلى قوله : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العِبَادِ ﴾ (١) ، فأخبر عقب قوله : ﴿ أَدْخِلُواْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ (٢) عن محاجتهم في النار وقول الضعفاء للذين استكبروا وقول المستكبرين للضعفاء : ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ ، ومعلوم أنَّ فرعون هو رأس المستكبرين ، وهو الذي استخف قومه فأطاعوه ، ولم يستكبر أحد استكبار فرعون فهو أحق بهذا النعت والحكم من جميع قومه .

● بقية الآيات في كفر فرعون وعذابه مع آله وهو منهم :

الموضع الثاني : وهو حُجَّة عليهم لا لهم قوله : ﴿ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ ﴾ (٣) أخبر أنه يقدم قومه ولم يقل : « يسوقهم » ، وأنه أوردهم النار . ومعلوم أنَّ المتقدم إذا أورد المتأخر النار كان هو أول مَن يردها وإلا لم يكن قادماً بل كان سائقاً . يوضح ذلك أنه قال : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ (٤) فعُلِمَ أنه وهم يردون النار ، وأنهم جميعاً ملعونون في الدنيا والآخرة . وما أخلق المحاج عن فرعون أن يكون بهذه المثابة فإنَّ المرء مع مَن أحب ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (٥) ، وأيضاً فقد قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ (٦) يقول : هلا آمن قوم فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَانُواْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ ﴾ ... إلى قوله: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ (٧)

---

(١) غافر : ٢٣ - ٤٨ (٢) غافر : ٤٦ (٣) هود : ٩٧ - ٩٩
(٤) هود : ٦٠ (٥) الأنفال : ٧٣ (٦) يونس : ٩٨
(٧) غافر : ٨٢ - ٨٥

فأخبر عن الأمم المكذِّبين للرسل أنهم آمنوا عند رؤية البأس ، وأنه لم يك ينفعهم إيمانهم حينئذ ، وأنَّ هذه سُنَّة الله الخالية فى عباده ، وهذا مطابق لما ذكره الله فى قوله لفرعون : ﴿ ءَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) فإنَّ هذا الخطاب هو استفهام إنكار - أى الآن تؤمن وقد عصيتَ قبل ؟ فأنكر أن يكون هذا الإيمان نافعاً أو مقبولاً ، فمَن قال : إنه نافع مقبول فقد خالف نص القرآن وخالف سُنَّة الله التى قد خلت فى عباده .

يبيِّن ذلك أنه لو كان إيمانه حينئذ مقبولاً لدُفِعَ عنه العذاب كما دُفِعَ عن قوم يونس ، فإنهم لما قَبِلَ إيمانهم مُتِّعوا إلى حين ، فإنَّ الإغراق هو عذاب على كفره ، فإذا لم يك كافراً لم يستحق عذاباً . وقوله بعد هذا : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ (٢) فوجب أن يعتبر به مَن خلفه ، ولو كان إنما مات مؤمناً لم يكن المؤمن مما يُعتبر بإهلاكه وإغراقه . وأيضاً فإنَّ النبى ﷺ لما أخبره ابن مسعود بقتل أبى جهل قال : « هذا فرعون هذه الأمة » فضرب النبى ﷺ المثل فى رأس الكفار المكذِّبين له برأس الكفار المكذِّبين لموسى . فهذا يبيِّن أنه هو الغاية فى الكفر ، فكيف يكون قد مات مؤمناً ؟ ومعلوم أنَّ مَن مات مؤمناً لا يجوز أن يوسم بالكفر ولا يوصف ، لأنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله ، وفى مسند أحمد وإسحاق وصحيح ابن أبى حاتم عن عوف بن مالك عن عبد الله ابن عمرو عن النبى ﷺ ؟ فى تارك الصلاة : « يأتى مع قارون وفرعون وهامان وأُبَىِّ بن خلف » .

« هذا آخر ما وُجِدَ من هذه الرسالة »

* * *

(١) يونس : ٩١ (٢) يونس : ٩٢